نهضة الثقافة الإسلامية وتحديثها

تشونغ جيكون *

كانت الثقافة الإسلامية العربية في العصور الوسطى بما فيها الأدب والفلسفة والعلوم والفنون ثقافة مولدة، ففضلا عن إبقاء المسلمين العرب أو وراثتهم لعناصر ذاتها الأصيلة،كانوا قد تشربوا واقتبسوا وامتثلوا من الثقافات أو الحضارات الأخرى الدخيلة من الهند والفرس والإغريق الروماني حتى من الصين بواسطة طريق الحرير البرّيّة والبحرية، ألم يقل نبيُّ المسلمين محمد «اطلبوا العلم ولو في الصين!» فلا غرو في ذلك، إذ إن الوراثة والتقليد -والاقتباس والتوليد- ثم الابتداع والتجديد، كل ذلك يعتبر من قوانين تطور كل الثقافات أو الحضارات أو الآداب، فالثقافة أو الحضارة الإسلامية العربية كانت متأثرة أولا، فأصبحت مؤثرة ثانياً. ففي صعيد الأدب ربما كان من أفضل الأمثلة التي تدل على ذلك كتابا "كليلة ودمنة" و"ألف ليلة وليلة".

كما نعرف أن العباسيين قد اتخذوا في الثقافة سياسة التخير وأنشأوا في بغداد بيت الحكمة، وقد استمرت حركة الترجمة في هذا العهد مائة سنة، أي من أواسط القرن الثامن إلى أواسط القرن التاسع للميلاد، فبواسطة كل ذلك هضم المسلمون العرب الثقافات الهندية والفارسية واليونانية وغيرها، مما خرّج للعالم كثيرا من العمالقة والعباقرة في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والكيمياء وسائر العلوم والفنون أمثال الكندي (801-865) والرازي (865-925) والفارابي (870-950) وابن سيناء (980-1037) والبيروني (972-1050) والخوارزمي (780-850) وابن رشد (1126-1198) وابن طفيل (1100-1185). وغيرهم، أما في مجال الأدب فنجد بعض كبار الشعراء والأدباء نبغوا نتيجة تمازج وتزاوج الثقافات الأصيلة والدخيلة أمثال أبي نواس، وأبي العتاهية، وابن الرومي، أبي تمام، والمتنبي، وأبي العلاء المعري, وابن المقفع, والجاحظ، وأبي الفرج الاصفهاني، وابن قتيبة، وابن عبد ربّه... إلخ.

لا يفوتنا أنه بينما كانت بلاد العرب والمسلمين تنورت بثقافتهم الباهرة وآدابهم الزاهرة في العصور الوسطى، كانت أوربا أو نقول البلاد الغربية تستغرق في الظلام الحالك، فأثرت حينئذ، ثقافة العرب الإسلامية وآدابهم فيما كان للغرب عن طريق الأندلس وصقلية اللتين كانتا من رقعة الخلافة العربية الكبرى حينذاك، عن طريقهما، وكذلك بواسطة الحروب الصليبية والتجارة، مما مهدّ الطريق للنهضة الأوربية المشهورة.

لقد كان أمراً طبيعياً حينئذ أن تتأثر الثقافة والآداب الأوربية بالثقافة والآداب العربية، لأن العربية كانت حينئذ تعتبر من أهم اللغات الدولية الرائجة مثلها مثل اللغة الإنجليزية في وقتنا الحاضر. وكانت العربية مثلا في الأندلس التي تعتبر جسرا حينذاك بين العرب

والغرب قد فرضت نفسها على الأسبان جميعا وأصبحت لغة الطبقة المثقفة، وأصبحت المؤلفات العربية في الأدب والفلسفة وسائر العلوم أغذيتهم الفكرية والروحية، حتى أن كاتبا أسبانيا متعصباً اسمه (الفارو) عاش في القرن التاسع الميلادي (أو أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري) قال ما نصّه: (وا أسفاه! إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبا ولا لغة غير الأدب العربي واللغة العربية. إنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ويبالغون في الثناء على نفائس الكتب العربية في حين يأنفون من الكتب المسحية بدعوى أنها لا تستحقّ أن يلتفت إليها، إن المسيحيين نسوا لغتهم، فلا تجد اليوم واحدا منهم بين كل ألف يكتب بها خطابا لصديق باللاتينية، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب، وقد ينظمون بها شعرا يفوق ما ينظمه العرب أنفسهم في الأناقة وصحّة الأداء).

وصدقت العالمة الألمانية الدكتورة زيغريد هوكنه (Sigrid Hunke) إذ قالت في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب): (إن العرب لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها، ثم أهدوها إلى الغرب فحسب، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلث وعلم الاجتماع. وبالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سرق أغلبها ونسب لآخرين، قدّم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقة لمعرفه أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم) كما قالت: (ولقد كان ظهور الإسلام وتوسعه عاملا أنقذ الكنيسة من الانحدر، وأرغمها على إعداد نفسها لمواجهة تلك القوى المعادية دينيا وفكريا وماديا. ولعل أكبر دليل على هذا هو أن الغرب بقي في تأخره ثقافيا واقتصاديا طوال الفترة التي عزل فيها نفسه عن الإسلام ولم يواجه. ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسيا وعلميا وتجاريا. واستيقظ الفكر الأوربي على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية من سباته الذي دام قرونا ليصبح أكثر غنىً وجمالاً وأوفر صحة وسعادة)

لنأخذ الأدب مثلا فلقد أعطانا العلماء أمثلة كثيرة وأدلة وفيرة عن طريق المقارنة والموازنة تثبت مدى تأثر الآداب الغربية بالأدب العربي في نهضتها المعروفة. فقد تأثر بالأدب العربي طائفة من عباقرة الشعر وعمالقة القصة رواد النهضة الأوربية خلال القرن الرابع عشر الميلادي وما بعده. نخصّ منهم بالذكر بوكاشيو (Boccaccio 1313-1375) ودانتي (Dante 1265-1321) وبترارك (Petrarca 1304-1374) الإيطاليين, وشوسر (Chaucer 1340-1400) الإنجليزي, وسرفانتس (Cervants 1547-1616) الإسباني.

فبوكاشو قد حذا حذو ألف ليلة وليلة عندما كتب قصص الديكاميرون (أو الصباحات العشرة) المشهورة، وعلى نفس المنوال نسج شوسر قصص كانتربري، أما دانتي وبترارك فقالت عنهما الدكتورة زيغريد هونكه: (لقد تأثر الشاعران الإيطاليان دانتي وبترارك بالأشعار العربية، بترارك عن غير عمد ودانتي لاهتمامه الشخصي بالأشعار

العربية والتصوف والفلسفة الأندلسية وابن رشد. وبينما نجد في أشعار بترارك تأثيرات عربية مباشرة نجد أثر ابن عربي ومؤلفاته واضحة وضوحا تاما في أشعار دانتي. (فقد أشار بعض مستشرقي الغرب وعلماء العرب ونخصّ بالذكر منهم البحّاث الإسباني أسين بلاشيوس (Asin Palacios) إلى أن دانتي تأثر كثيرا في رائعته (الكوميديا الإلهية) بقصة الإسراء والمعراج العربية ورسالة الغفران لأبي العلاء المعرى. أما سرفانتس فقد عاش في الجزائر بضع سنوات فرواتيه (دون كيخونه) غنية بالفكاهة والدعابة العربية مزوقة بالعبارات والأمثال العربية مما يدلّ على المؤثرات العربية فيها قوية.

وكذلك يخبرنا العلماء من العرب والغرب كيف كانت تلك القصص الصغيرة المسمّاة بالفابليو الفرنسية (Fableau) وكذلك قصص الفروسية والحبّ الأوروبية في العصور الوسطى متأثرة بالآداب العربية وكيف كانت المقامات العربية تؤثر في نشأة قصص الشطّار (Picaresca) الإسبانية، وكيف كان الشعر العربي يؤثر عن طريق الموشحات والأزجال الأندلسية في تجديد الشعر الأوروبي مما أظهر شعراء البروفنسال (Provence) وشعراء التروبادور (Trobadour) في جنوبي أوربا في العصور الوسطى.

ومن نافلة القول أن تأثير الثقافة العربية الإسلامية في الحضارة الأوروبية الغربية وفي النهضة الأوروبية في القرون الوسطى لم يقتصر على الأدب فقط، بل نجد هذا التأثير في جميع العلوم الطبيعية والاجتماعية: الطبّ والرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والكيمياء والفلسفة والتاريخ والجغرافية.

يتردد ويتشدق بعض من يتشبث بالمركزية الأوروبية من علماء الغرب بأن نهضتهم تكونت على أساس الحضارة اليونانية أو على إحيائها، ولكنهم جهلوا أو تجاهلوا، نسوا أو تناسوا فضل العرب المسلمين في القرون الوسطى في ذلك؛ في حين كانت الكنيسة في الغرب قد حارب التراث اليوناني القديم حربا شعواء, ونظرت إليه على أنه تراث ضارّ بالعقيدة المسيحية لارتباط بالوثنية, وحرمت على المسيحيين الاطلاع عليه باعتباره من عمل الشيطان, وبالتالي تعرضت مؤلفات معظم الفلاسفة والأدباء اليونان للإهمال والازدراء، أما العرب المسلمون فعلى عكس ذلك إذ أنفقت الدولة العباسية لبيت الحكمة مبالغ ضخمة للحصول على المخطوطات من مختلف الأقطار وشتى الأمصار ونقلها، وترجمتها، وتؤكد المصادر أن الخليفة المأمون الذي أنشأ بيت الحكمة كان يعطي بعض المترجمين أمثال حنين بن إسحق وزن الكتاب الذي يترجمه ذهباً. ومن المعروف أن المترجمين والعلماء العاملين في بيت الحكمة لم يكتفوا يترجمة الكتب من لغاتها الأصلية إلى العربية فحسب، بل قاموا بتفسير الكثير منها ونقدها وتحقيقها وتدقيقها وتصحيحها وإكمالها، فعلى أساس وراثة الثقافة العربية الإسلامية الأصلية الاقتباس من سائر الثقافات الدخيلة بلغت الثقافة العربية الإسلامية ذروتها في عصر الخلافة العباسية مثلها مثل الثقافة الصينية في نفس الوقت أي في عصر أسرة تانغ المالكة (618-907م) التي كانت تحافظ على الثقافة الصينية الأصيلة وتقتبس من ثقافات الدول المجاورة الدخيلة خصوصا من

الثقافة الهندية البوذية حتى تعتبر الثقافة الصينية حيئذ في ذروتها، فنستحق نحن الأمّتين الصينية والعربية أن نفتخر بمآثر أجدادنا إذ أقاموا منارتين ثقافية وحضارية في القرون الوسطى في طرفي طريق الحرير فبينما كان الأفرنج والعجم يتخذون اللغة العربية لغة دارجة رائجة, ويتوافدون إلى العواصم والحواضر لطلب العلم نجد في طرف طريق الحرير الآخر الشرقيين من بينهم اليابانيون والكوريون والفيتناميون يقبلون زرافات ووحدانا إلى تشانغ -عاصمة الصين حينذاك- ليتعلموا حتى يجيدوا في نظم الشعر باللغة الصينية. أما الأوربيون الغربيون فعندما بدأوا يتلمّسون بدايات نهضتها الحديثة، ويحاولون إحياء التراث اليوناني القديم،لم يجدوا في حوزتهم سوى الترجمة العربية لهذا التراث، لأن معظم أصوله اليونانية الأولى كانت قد فقدت. ولهذا قامت بترجمته، عبر صقلية والأندلس، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر من العربية إلى اللاتينية. هكذا فمن نافلة القول أنه لولا العرب المسلمون بثقافتهم في القرون الوسطى لما كانت النهضة الأوروبية ولم يكن بالتالي تقدم الغرب الذي لا يجد فرصة إلا عرضه متباهياً أمامنا نحن أبناء الشرق.

ولكن على كل حال فإن الفلك يدور والدهر يتغير والعالم يتطور، وكما يقول المثل: يوم لك ويوم عليك، فقد تخلفنا نحن الأمم الشرقية بما فيها الأمة العربية والأمة الصينية، منذ العصور المتأخر. وأسباب ذلك معقدة، داخلياً وخارجياً، يطول حديثها، فلنترك ذلك لعلماء التاريخ للتحليل والتعليل، أما ما يواجهنا ويجابهنا من المسائل والمشاكل فهو كيف ننهض وكيف نواكب الحداثة، فرجعنا إلى موضوعنا: (نهضة الثقافة الإسلامية وتحديثها) أرى أولا- وقبل كل شيء علينا أن نعترف بأننا قد تأخرنا والغرب قد سبقنا علميا واقتصاديا وعسكريا على الأقلّ، فلا داعي لنشعر بالخجل والعار في ذلك، إذ نعرف كما ذكرنا أن الأفلاك تدور والدهر يتغير ويتطور، فأقدم الحضارات الإنسانية نبعت في الشرق مثلها مثل الشمس تطلع من الشرق فالحضارات في وادي النيل والرافدين والسواحل الشرقية من البحر المتوسط الأبيض، وكذلك الحضارات الهندية والصينية كلها من أسبق حضارات الأنسانية الأصلية، وبعد ذلك اقتبس اليونان من الحضارات في وادي النيل والرافدين والسواحل الشرقية من البحر المتوسط الأبيض فأصبحت الحضارة اليونانية سائدة وبعد تردّيها سادت الحضارة أو الثقافة العربية الإسلامية بعد أن حافظت على تراثها الأصيل واقتبست من الثقافات الدخيلة، وبعد ذلك حتى عصرنا الحاضر العصر الحديث أصبحت الثقافة أو الحضارة الغربية بعد النهضة الأوروبية التي مهدت الطريق لها الثقافة العربية الإسلامية، ونجد في سيرة تطورات الثقافات والحضارات الإنسانية كثيراً من الخبر والعبر فلا ينبغي لأي ثقافة أو الحضارة أن تتوقف وتتجمد في مكانها الأصلي، من حق أيّ أمة أن تفاخر بما كان لآبائهم وأجدادهم من الأمجاد والمآثر ولكن ليس من الحكمة أن تنام على ذلك، ونتباهى به، فلا تحقق وتجدد من البطولات والمفاخر. ونجد أيضا على أي أمة أن ترث ثقافتها الأصيلة وتحافظ عليها، ولكن علينا أن ننبذ في ذلك قشورها ونستخلص لبابها، وكذلك يجب علينا أن نجهد في الاستفادة والاقتباس من سائر الثقافات والحضارات

الدخيلة ونتخذ في ذلك سياسة التخير والتسامح بلا تعصبية قومية أو دينية، فما دامت الدول الغربية أكثر تقدم وتطورا منا في النواحي الكثيرة فما يمنعنا من أن نستفيد من منجزاتها، فقد صدق الدكتور طه حسين إذ قال: إننا لا نغلو ولا نكثر ولا نفاخر بالباطل إذا قلنا إن الغرب الأوروبي والأمريكي الآن على تفوقه إنما هو مدين بتفوقه كله وبعلمه كلّه لهذه الأصول الحضارية الخصية الدائمة التي نقلها العرب إلى أوروبا في القرون الوسطى، ولا ينبغي مطلقا أن نتحرج من أن نطالب الأوروبيين -وقد طالبتهم كثيرا- بأن يردّوا إلى الشرق بعض دينه عليهم، وألا يكونوا ملتوين بما عليهم من الدين وأن يشعروا بأنِ للشرق العربي جميلا يجب أن يقدّروه وأن يشكروه، لا أن يسرفوا في العزة والإثم ولا يبغَوا على الذين أحسنوا إليهم وعلموهم كيف يكون الإحسان وكيف تكون الحضارة! (ففي الثقافة أو الحضارة الغربية حسنات إيجابية ولها سيئات سلبية فنعارض من يرى القمر الغربي أكثر استدارة من قمرنا بينما نعارض أيضا من يرى قمرنا الشرقي أكثر استدارة من القمر الغربي، فمن الأفضل والأجمل لكل الثقافات أن تتمازج وأن تتواصل وتتبادل وتتكامل حتى تصبح منجزات كل الثقافات ممتلكات الإنسانية جمعاء.

****

*) مفكر وأكاديمي من الصين.